رؤية للمنهج الاجتماعي في النقد

■ د. صبري مسلم حمادي*

يستند المنهج الاجتماعي إلى فرضية صحيحة هي أن ثمة صلة مؤكدة بين الظاهرة الأدبية والظاهرة الاجتماعية؛ بمعنى أن المجتمع لا بد أن يعكس تأثيره على بنية الظاهرة الفنية ومضمونها، بيد أن طبيعة هذه الصلة خضعت لاجتهادات النقّاد، ولسياقات أبرزت مزالق هذا المنهج النقدي، ومنها أن تطغى أحكام علم الاجتماع ورؤاه على التحليل الأدبي ذي الطابع الجمالي، لا سيما إذا ما حاول الناقد في ظل هذا المنهج أن يفسر النصوص الإبداعية، بحيث تبدو مجرد ظلٍّ باهتٍ للظواهر الاجتماعية، وبأسلوب يتجاهل جوهر النص الفني، ويخرج إلينا باستنتاجات جافة لا روح فيها.

ويضع «ويلبريس سكوت» المنهج الاجتماعي تحت عنوان (الأدب والمثل الاجتماعية)، ويحاول أن يبرهن على أن الفن لا يتخلّق في فراغ، وأنَّ الفنان - وينطبق هذا على كل فنون القول - محدَّد بزمان ومكان، وهو يستجيب لمجتمع هو جزءُه المعبّر الناطق. وما دام الفن يحتفظ بروابطه مع المجتمع، وهذا لا يمكن إلا أن يكون قائماً؛ فإن النقد الاجتماعي سواء أكان يتبع نظرية معينة أم لم يكن، سيبقى عاملاً فعالاً في النقد. ومن الواضح أن «ويلبريس سكوت» قصد النقد الماركسي حين تحدث عن النقد الذي يرضى بأن يكون ظلا لنظرية معيّنة وتابعا ذليلا لها.

ومن المعروف، أن المدرسة الماركسية استطاعت أن تقضي على المدرسة الشكلانية في روسيا عام ١٩٣٠م، والتي يعود أصلها إلى عام ١٩١٥- ١٩١٦م، وبلغت أوجها بعد عام ١٩٢٠م. والمدرسة الشكلانية هي إرهاص بالمناهج النقدية التي ظهرت فيما بعد، وانصبَّ اهتمامها على البنية الفنية للنص، ومنها المنهج البنيوي ذائع الصيت.

ويشير «إنريك أندرسون إمبرت» إلى غزارة نماذج النقد الماركسي ذات الطابع المضموني بالضرورة؛ إذ وصفها بأنها أكوام من النماذج على المنهج الاجتماعي الذي طبّقه النقاد الماركسيون. فكأن النقد الاجتماعي يبحث عن مقام الكسر المشترك بين الكاتب وأفراد طبقته الاجتماعية والتجربة التي يعبر عنها، يشاركه فيها أفراد آخرون ومنهم المتلقي أو القارئ، فضلاً عن أن محتوى العمل الإبداعي غالباً ما ينهض على ملاحظة التصرف الإنساني؛ إذاً، فمقام الكسر المشترك - كما وصفه إمبرت - يشمل المبدع والنص والمتلقي على حد سواء، وبناء على رؤية النقد الاجتماعي.

وينفتح النقد الاجتماعي على المتلقّي أو الجمهور – كما عبّر «ليفين ل. شوكينج» في دراسة له تحت عنوان: الذوق الأدبي – بحيث يكون الجمهور وعلى مر الأجيال هو معيار جودة النص؛ إذ، عندما يفوز عمل ما في الاحتفاظ بشهرته على امتداد أجيال كثيرة، لا بد أن يكون قد انتقل من طراز اجتماعي إلى آخر، ولأنه استطاع أن يقدم شيئاً إلى جماعات تختلف كثيراً في مزاجها النفسي، فإنه يبرهن على أنه يمتلك قيماً فنية ومضمونية متفردة قادرة على تجاوز عصر محدد. أليس في بقاء رونقه على مر العصور دليل على جودته وأصالته؟ ولنا في الشعر العربي الجاهلي -كشعر المعلقات على سبيل الاستدلال- والعصور التي تلته نماذج شعرية رائعة، ما تزال تنسجم مع ذائقتنا الشعرية، ونحلّق معها في أجواء شعرية مدهشة، بل إن ملحمة جلجامش – وينطبق هذا على الإلياذة والأوديسة - تنفذ إلى أفكارنا وقلوبنا، فنحسّ بعبقرية الفن الذي تضمنته، على الرغم من مرور نحو خمسة قرون على كتابة الصيغة الأولى لها زمن السومريين، وكما تثبت ذلك الأرقام الطينية.

وفي النقد العربي القديم، نجد جذور النقد الاجتماعي في كتاب «عيار الشعر» لمحمد بن طباطبا العلوي، إذ يشير صاحب «عيار الشعر» - وعلى سبيل الاستدلال - إشارة واضحة إلى أن بعض التشبيهات – وينطبق هذا على ظواهر شعرية أخرى – لا يمكن فهمها إلا من خلال التقليد الاجتماعي الذي قامت عليه أو أشارت إليه. تأمل ما أورده ابن طباطبا نصاً «فإذا اتفق لك في أشعار العرب التي يحتج بها تشبيه لا تتلقاه بالقبول، أو حكاية تستغربها، فابحث عنهما ونقِّر عن معناهما، فإنك لا تعدم أن تجد تحتهما خبيئة إذا أثرتها عرفت فضل القوم بها، وعلمت أنهم أدق طبعاً من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته». ويوضح ابن طباطبا هذه المسألة، بل ويبرهن عليها بأسلوب مقنع، ومن خلال عشرات النماذج الشعرية المرتبطة بظروف اجتماعية ومعتقدية خاصة؛ نذكر منها أنهم يعالجون اللديغ بالحلي التي يعلقونها عليه، أو أنهم يفقأون عين الجمل الفحل حين يبلغ عدد الجمال ألفا!

وفي عصرنا هذا نجد عشرات الأعمال الإبداعية، سواء أكانت في مجال الفن الشعري أم السردي.. يبدو النقد الاجتماعي فيها هو المدخل الأمثل للنفاذ إلى المسكوت عنه، والوصول إلى بؤرة النص الإبداعي؛ وعلى سبيل المثال نذكر ثلاثية نجيب محفوظ: «بين القصرين، وقصر الشوق، والسكرية»، التي رصد فيها محفوظ تطور المجتمع المصري وعبر ثلاثة أجيال، مثل هذا العمل الروائي الضخم، لا يمكن تجاهل المحور الاجتماعي الذي قامت عليه هذه الثلاثية. ومثل ذلك يقال عن كثير من الأعمال الروائية العالمية لـ«بلزاك» و«ستاندال» و«ليو تولستوي» و«ديستويفسكي» و«جبريل غارسيا ماركيز»، وينطبق هذا تماما على عشرات الأعمال الأدبية الأخرى التي يبدو فيها النقد الاجتماعي مناسباً، بل وضرورياً من أجل الدخول من خلال آلياته إلى مثل هذه الأعمال الفنية. ولا نجد ضرورة هنا من تكرار زخم من الأعمال الأدبية التي يصلح النقد الاجتماعي مدخلاً لها، سواء أكانت هذه الأعمال الأدبية مصوغة باللغة العربية أم بلغات عالمية أخرى.

---

* أستاذ اللغة العربية في قسم اللغات الأجنبية بكلية وشتناو – أن آربر - ميتشغن – الولايات المتحدة الأمريكية.